

## نشأة المدينة الجزائرية

### في الفترة الوسيطة " تقديم وتعريف "

#### The emergence of the Algerian city in the intermediate period

#### "introduction and definition"

الدكتور: علي عشي\*

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية جامعة الحاج لخضر "باتنة 1"

تاريخ إرسال المقال: 2018/12/28 تاريخ القبول: 2019/06/24 تاريخ النشر: 2020/01/16

ملخص: المدينة عبارة عن تفاعل حقيقي بين الانسان والإنسان، وبين الإنسان والمكان، ولا يتم هذا التفاعل في فراغ بل تحكمه أطر فكرية وتكنولوجية تعبر عن صيرورة تاريخية لذلك المجتمع وهذا المكان، ولهذا نشأت في الفترة الوسيطة المدينة الاسلامية لها خصوصياتها ومميزاتها دون بقية المدن.

ورغم قدم المدينة في البلاد الاسلامية بمميزات الحضارات السابقة إلا أن الفقهاء المسلمين وضعوا عدة شروط لبناء المدينة الاسلامية، يمكن ملاحظتها في مختلف المدن الكبرى.

الكلمات المفتاحية: المدينة، الاسلامية، الحضارة، البناء، الجزائرية

**Abstract :** The city is a real interaction between man and man, and between man and place, and this interaction is not in a vacuum but is governed by intellectual and technological frameworks reflect the historical process of that community and this place, and that originated in the intermediate period the Islamic city has its peculiarities and characteristics without the rest of the cities.

Although the city has presented the Islamic countries with the characteristics of previous civilizations, Islamic jurists have set several conditions for the construction of the Islamic city, which can be observed in various major cities.

**key words:** City, Islamic, civilization, construction, Algerian

#### مقدمة:

إن للتراث الفكري والمادي دور في استمرار وتشكل الواقع الحالي، ولذا وجب على المفكرين والمسؤولين بالمدن العربية أن يعمقوا المفاهيم بالعودة الى المدينة العربية التاريخية، وتفهم جذورها وأصولها، فالمدن المعاصرة وليدة التطور التاريخي ولا يجوز الفصل بين الماضي والحاضر.

ظهرت بالجزائر منذ بدأ التاريخ عدة مدن تراوحت بين الكبيرة والصغيرة اتخذت لنفسها طابعا خاصا بربريا أمازيغيا، ثم مزجته بتأثيرات أجنبية من مختلف الشعوب الوافدة عليها كالفنيقيين والرومان والبيزنطيين، ثم تأثرت تأثرا كبيرا بالمدينة الاسلامية وخصائصها ومميزاتها باعتبارها

\* - الباحث المرسل: maktoob72@gmail.com

مدعومة بالدين الاسلامية الحنيف، لتتخذ لنفسها طابعا خاصا ممثلا في المدينة الامازيغية الاسلامية، منها مدينة بجاية، وتلمسان وقسنطينة، وتمهرت وبونة وجزائر بني مزغنة... والمدينة والتمدن أرقى انجاز توصل اليه الانسان في استقراره على الارض وهي وليدة الحضارة أو أنها الحضارة، وهي مركز الاشعاع الفكري وأسلوب متقدم من أساليب الحياة<sup>(1)</sup>.  
 أما عن المنهج المتبع فسنمزج بين المنهج التاريخي السردى والمنهج التحليلي والوصفي. ولا تهدف هذه الدراسة التغني بماضي المسلمين ودورهم في إنشاء أو احياء المدن، ولكنها تحاول أن تتعرف على أهم ملامح المدينة الاسلامية وخصائصها والاضافات التي شهدتها في رسم جزء من هذه الصورة مجال للمقارنة بين المدن الاسلامية في فترة ازدهارها وما نجد عليه كثيرا من المدن الاسلامية الحالية من فوضى وتدهور، لعل ذلك يسفر عن إحياء لبعض المعالم المشرقة التي عرفتها المدينة الاسلامية في ماضيها المشرق  
 ولهذا ستكون الاشكالية التي سنبنينا تتمحور حول: المدينة الجزائرية بين المحافظة والتأثر بدراسة تاريخية. وسنعالج هذه الاشكالية وفق الخطة التالية:

### أولا: تعريف المدينة ومدناتها

ليست المدينة مجموعة من المنشآت والمباني والطرق فحسب، كما أنها ليست مجرد تجمع من البشر في مكان جغرافي واحد، ولكن المدينة عبارة عن تفاعل حقيقي بين الانسان والإنسان، وبين الانسان والمكان، ولا يتم هذا التفاعل في فراغ بل تحكمه أطر فكرية وتكنولوجية تعبر عن صيرورة تاريخية لذلك المجتمع وهذا المكان<sup>(2)</sup>.

ويقول ابن خلدون "فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلًا. فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة. ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها، وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها. ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال التعرف وعوائده عاج إلى الدعة، وأمكن نفسه إلى قياد

1) محمد صبري ميادة عبد الملك (تخطيط وعمارة المدينة الاسلامية "مدينة دمشق القديمة نموذج حضري لقمة التعايش والتعامل في المنظور الاسلامي) مجلة كلية التربية، واسط، العدد 11، ص2.

2) إسماعيل سراج الدين وسمير الصادق (المدينة العربية وتراثها الحضاري الإسلامي) ضمن أعمال ندوة المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي المدينة المنورة، 28 فبراير الى 5 مارس 1981، ص17.

المدينة. وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم. والحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته. ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر<sup>(1)</sup>.

ولهذا سنقدم مجموعة من التعاريف تختلف باختلاف تفكير قائلها ومجال اختصاصها ومنها: لغة: تعرفها المعاجم العربية بأنها مشتقة من مَدَنَ أي أقام فهو فلان مدن المدائن مصر الأمصار والمدينة الحصن<sup>(2)</sup>....والجمع مدائن ومدن<sup>(3)</sup>، وللمدينة عدة أسماء مرادفة لها منها المصر والوطن والبلد والحصن والحاضرة، والمدرة<sup>(4)</sup>.

اصطلاحا: المدينة هي المكان أو رقعة من الأرض يجتمع فيها الناس لها حدود ثابتة<sup>(5)</sup>، فالمدينة تجمع سكاني كبير شكل أجزائه مجتمعا حضاريا يعمل ويعيش ضمن منظومة إقتصادية وسياسية<sup>(6)</sup>.

ويعرف ماكس سورر Max Sorre المدينة في كتابه Fondement de la géographie humaine على أنها محل يعيش فيه مجتمع مستقر غالبا ما يكون ضخم العدد كما أن كثافته مرتفعة ولا يعتمد كل أفرادها أو معظمهم في رزقهم على الزراعة، وهو على درجة عالية من التنظيم<sup>(7)</sup>. والمدينة قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من التعرف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار. ولما كان ذلك للقرار والمأوى، وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها<sup>(8)</sup>، وأنها كيان عمراني وإداري يخضع في تنظيمه لمجموعة من القوانين وتطور عبر الزمان والمكان<sup>(9)</sup>.

1) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001، ج1، ص152-153.

2) ابن منظور، لسان العرب، دار الجليل، بيروت، 1988، مج5، ص455؛ ومصطفى العباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية دار الرشيد، العراق، د ط، 1982، ص15.

3) يعقوب الفيروز آبادي محي الدين محمد بن، القاموس المحيط، الهيئة المصرية للكتاب، ط3، 1980، ج4، ص266؛ وعبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 2009، ص61.

4) ناجي عبد الجبار، المرجع نفسه، ص59؛ وطويل الطاهر، المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط وزارة الثقافة، الجزائر، 2011، ص37.

5) ناجي عبد الجبار، المرجع نفسه، ص61.

6) محمد بلول مختار، المدينة المنورة ذرة المدائن، دار بلول، ط1، الرياض، 2000، ص16.

7) محمد وهيب عبد الفتاح، جغرافية العمران، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1980، ص35.

8) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادى، خزنة ابن خلدون، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ج2، ص182.

9) عبد الحق الطاهري ( المدينة الإسلامية الوظائف والتنظيمات)، مجلة كان التاريخية، ع28، 2015، ص155.

كما تعرف المدينة كذلك على أنها المحل الذي لا يقل عدد سكانها عن 5 آلاف نسمة أو هي المحل الذي يعمل سكانها في داخلها: "عكس الريف والقرى التي يعمل أغلب سكانها خارجها في مزارع أو مناجم"<sup>(1)</sup>.

ويورد لوفير H.LEFEBVRE تعريف ماركسي "شيوعي": بأنها انعكاس المجتمع في الأرض يعني مع بنيتها الفوقية وقاعدتها الاقتصادية وعلاقتها الاجتماعية فنتيجة لعمليات التصنيع الواسعة، تحولت المدينة من وسط اجتماعي مفتوح للجميع إلى ميدان يتميز فيه الطبقات اقتصاديا<sup>(2)</sup>. أما التعريف الرأسمالي لها بأنها العنصر الوظيفي والاطار الاقتصادي الذي تمارس فيه البرجوازية المنسجمة سلطاتها، وهي كيان يستمد وحدته من الممارسات اليومية لسوق العمل<sup>(3)</sup>. وبناء على ذلك فإن المدينة نظام اجتماعي، ونظام إقتصادي، ونظام سياسي، وعلى أنها عمل فني وأداة للاتصال<sup>(4)</sup>.

### ثانيا: شروط انشاء المدن ووظائفها

منذ أن عرف الانسان المدينة اعتبر ذلك تحولا كبيرا في حياته حيث استطاع أن يبني أعظم الحضارات وأرقامها، وعرف كيف يستثمر قدراته البدنية والعقلية وفي المدينة عرف الانسان الاستيطان الدائم، وممارسة الاعمال غير الزراعية وإقامة المباني العامة، فضلا عن تطور نظم الحكم واختراع الكتابة وغير ذلك<sup>(5)</sup>.

يذكر ابن الازرق لكيفية انشاء المدن وشروطها بقوله " يأخذ السلطان الناس بالتجارة وكثرة الغراس ويقطعهم الاقطاعات في الأرض الموات، ويجعل لكل أحد ملك ما عمر، ويعينه على ذلك فيه لترخيص الاسعار ويعيش الناس والحيوان، ويعظم الأجر، ويكثر الاغنياء وما يجب فيه الزكاة،

(1) عبد الله عطوي، جغرافية المدن، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2001، ج 1، ص 12-13.

يوجد اختلاف في حجم المدينة فمثلا يعتبر المعهد الوطني للإحصائيات أن المدينة لا تقل عن 2000 نسمة بينما في الدنمارك حددوا المدينة ب 200 نسمة فقط وفي اليابان ب 5 آلاف نسمة بينما في دول أخرى مثل إنجلترا ودول جنوب افريقيا يرجع تحديد المدينة من عدمها الى النظام الاداري . سفلاندا أماند (المدينة محل نقاش) مجلة المدينة وتنظيمها الحضري، مارينوا، العدد 03، ص 07.

(2) بن تامي رضا ( الطب الشعبي في المدينة) أطروحة دكتراه علوم في علم الاجتماع، جامعة وهران، 2012-2013، ص 21-22.

(3) جاكين بوجواريني، الجغرافية الحضرية، ترجمة حلمي عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989، ص 16.

(4) اليسيف نيكيتا (التخطيط المادي) مقالة من حلقة التدريس التي عقدت بمركز الشرق الأوسط التابع لكلية الدراسات الشرقية جامعة كمبرج، المملكة المتحدة تحت عنوان، "المدينة الإسلامية ترجمة أحمد تعلق، إشراف على النشر (ر. ب. سرجنت)، اليونسكو، 1983، ص 15.

(5) حسين أحمد رشوان، المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، مصر، ط6، 1998، ص 57.

ثم يواصل التأكيد على أن الدولة دون العمران لا تتصور والعمران لا تتصور والعمران دونها متعذر<sup>(1)</sup>.

ويربط ابن خلدون التطور في العمران والبناء بظهور المدن، خاصة من حيث الحرف والمهنة والتعاون بين الناس بقوله "تشكل العمارة المنظمة، تلك المشيدة من المواد المتينة والثمينة، فالعمارة المدنية هي في المحصلة من ثمرات الترف الناتج من المهنة التجارية والصناعية"<sup>(2)</sup>. ويرجع ابن الأزرق أسبقية الدول على المدن كمبرر لانفراد الدول "السلطان" ببناء المدن إلى أمرين: أولاً: أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة، التي يدعو إليها الترف والدعة، وذلك متأخر عن البداوة، وثانياً: أن المدن والأمصا ذات هياكل وأجرام عظام وبناء كثير، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي، وكثرة التعاون، وليست من الضروريات التي تعم بها البلوى، حتى يكون النزوع إليها شرطياً واضطرابياً، بل لا بد من الإكراه على ذلك، وسوق الناس إليه مضطرين بعضا الملك، أو مرغبين في الأجر الذي لا يفي به لكثرتة إلا الملك، فإذا لا بد من تمصير الأمصار، واختطاط المدن من الدولة والملك<sup>(3)</sup>.

وقد وضع الفقهاء المسلمون ستة شروط لاختطاط المدن وهي:

- 1-سعة المياه المستعذبة
- 2-إمكان الميرة المستمدة-أي توفر الطعام -
- 3-اعتدال المكان وجودة الهواء
- 4-القرب من المراعي والاحتطاب
- 5-تحصين المنازل من الأعداء والذعار –أي المخوفون-
- 6-أن يحيط بها سواد-أراضي زراعية-يعين أهلها<sup>(4)</sup>.

لقد حاول بعض الدارسين حصر مميزات المدينة الإسلامية ومع إفرارهم بعدم وجود مدينة إسلامية نموذجية، لخص بعضهم الملامح الأساسية للمدينة الإسلامية في خمسة: "وجود القلعة التي تقوم في موقع له طبيعة دفاعية، وجود مدينة ملكية أو حي ملكي، وجود مركز يضم المسجد

(1) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ج 1، ص 223.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ج 2، ص 182.

(3) ابن الأزرق، المصدر السابق، ج 2، ص 762.

(4) ابن الأزرق، المصدر السابق، ج 1، ص 106؛ والماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق

محيي هلال سرحان، نشر دار النهضة العربية، بيروت، 1998، ص 162-163.

الجامع والمساجد الكبرى والمدارس الدينية والأسواق، وجود منطقة تضم أحياء سكنية تتميز بالاستقلال النسبي، وجود الضواحي أو الأحياء الخارجية التي حيث يقيم الوافدون الجدد"<sup>(1)</sup>. ويذكر الفرسطائي ما يتعلق ببناء المساكن ومنه تأسيس المدن "إذا أراد قوم أن يحدثوا منزلا عامة كانوا أو خواص فإنهم يحدثونه في أرضهم أو في أرض من أذن لهم أو في أرض لم تكن لأحد، كما اتفقوا على حدته وعمارته فيما يعمر كل واحد منهم، ويجوز لهم الاتفاق على عمارته بالسوية وعلى ما لهم فيه قل أو كثير، ويجعلون له طرقه ومجازاته ومنافعه على ما اتفقوا عليه من سعة طرقه وذلك باتفاقهم كلهم العام منهم والخاص أو ما رأى لهم أهل النظر منهم أو من غيرهم مما اتفقوا عليه من البنيان والأحداث، فإن بنوا أو عمروا أو أحدثوا فلا يصيب من أراد منهم نقص ذلك ولا نزوعه سواء في ذلك عامتهم وخاصتهم أو غيرهم من الناس"<sup>(2)</sup>.

كما وضع ابن الرامي قواعد للعمارة وأساس لبناء مرافق المدن التي يجب أن لا تكون مضررة بسكانها مثل دخان الحمامات والأفران، فيذكر "أن الدخان ينقسم الى قسمين، منه ما يمنع ومنه ما لا يمنع، فالذي يمنع دخان الحمامات والأفران وما قاربه، والذي لا يمنع منه: دخان التنور والمطابخ وما قاربه مما لا بد منه ولا يستغنى عنه طبخ المعاييش وغيرها مما يستدام أمرها"<sup>(3)</sup>.

### ثالثا: ظهور المدن الجزائرية الاسلامية.

إن المدينة هي ثمرة تطور تاريخي بعيد المدى نتجت عن غرس مدني نشأ تلقائيا أو لمطلب ذاتي أدت إلى قيام مراكز عمرانية على حواف الانهار فنشأت في الأودية الخصبة حضارات من أعرق ما عرفها التاريخ كالحضارة السومرية والفرعونية والفينيقية<sup>(4)</sup>، والرومانية والامازيغية. اذن المدينة هي رقعة تاريخية قديمة غيرها المجتمع الانساني منذ زمن يرجع الى سبعة آلاف سنة فالمدينة بحق أعظم المنجزات الحضارية وليست خبرة جديدة في الفكر الانساني<sup>(5)</sup>، و"تاريخ ظهور وتشكل المدينة يرجع الى بروز الاحتياجات العملية التي كانت تجمع مراسيم معينة بين لفييف من

(1) الطاهري عبد الحق، المرجع السابق، ص 155.

(2) الفرسطائي، القسمة وأصول الأرضيين، تحقيق محمد صالح ناصر وبكير بن محمد الشيخ بلحاج، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 1994، ص 97.

(3) ابن الرامي، الاعلام بأحكام البنيان، تحقيق عبد الرحمن بن صالح الاطرام، مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيلية، الرياض، 1995، ج 1، ص 210.

(4) مصطفى عباس الموسوي، المرجع السابق، ص 15-16.

(5) نفسه، ص 15.

الأسرات والقبائل للسكن في موطن مشترك، وفي عدد من المخيمات المتقاربة"<sup>(1)</sup> وعليه ازدادت الحاجيات المختلفة التي فرضت عليه الاستقرار والتعاون وبدأت تظهر الفروق الواضحة بين القرى والمدن<sup>(2)</sup>.

ومن المعروف أن ظاهرة التمدن قديمة بشمال إفريقيا قدم الانسان بها، غير أن الصعوبات التي تعترض طريق الباحث هي التأثيرات التي تتركها مختلف الحضارات على المدن وتطبعها بطابعها الحضاري والثقافي على مستوى العمارة والمؤسسات وأشكال تخطيط "تصميم" المدن، مثل التأثيرات البونيقية والرومانية والإسلامية، لذلك فالمدينة بشمال إفريقيا هي نتيجة تفاعل مجموعة من التأثيرات المحلية والبونيقية والمتوسطية والإسلامية<sup>(3)</sup>.

ويرى بعض الباحثين أن ما نطلق عليه الآن المدن الإسلامية العربية في الجزائر ليس في الواقع سوى المدينة الفينيقية الرومانية الأمازيغية التي سبقتها، وإذا كان قد حدث في تركيبها الداخلي بعض التغيير الذي يتناسب مع الإسلام فإن هذا لا يؤدي إلى اكتسابها صفة جديدة، وإن كل الذي حدث أن المساجد حلت محل المعابد والكنائس<sup>(4)</sup>.

غير أن المدينة الإسلامية لها شخصيتها الخاصة، وهويتها التي تعرف بها دون غيرها، والمرتبطة بمكوناتها التي تشكل مقوماتها الروحية أو المعنوية، وهي لها ومضمونها وهي التي تصنع شكلها وتعطيها رموزها ولغتها وتغمرها بمعانيها وتضبط وظائفها ومنهج حياتها<sup>(5)</sup>.

وتكتسب المدينة صفتها من ملامحها ومميزاتها الخاصة فوصف المدينة بالإسلامية يعتمد على معايير تبين أهم الملامح التي يجب أن تتوفر في المجتمع الحضري حتى يمكن وصفه ب"المدينة الإسلامية فصحيح أن صفة الإسلامية بالنسبة للمدينة لا تقتصر على تاريخ الانشاء بحيث لا يمكن إطلاق هذه الصفة فقط على المدن التي أنشأت بعد مجيء الإسلام فكثير من المدن التي

(1) مرفورد لويس، المدينة على مر العصور أصلها وتطورها ومستقبلها، إشراف ومراجعة إبراهيم نصحي، مكتبة الأنجلو المصرية، 1964، ج1، ص14.

(2) طوبيل الطاهر، المرجع السابق، ص38.

(3) العميم محمد (إشكالية أصل المدينة بشمال إفريقيا) ضمن أعمال ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي، من 24-26 نوفمبر 1988، كلية الآداب والعلوم الانسانية2 ابن مسيك، الدار البيضاء، ص63.

(4) إسماعيل أحمد علي، المدينة العربية والإسلامية، توازن الموقع والتركيب الداخلي، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، يونيو 1987، ص6.

(5) بن يوسف إبراهيم، إشكالية العمران والمشروع الإسلامي الجزائر، 1992، ص64؛ والطوبيل الطاهر، المرجع السابق، ص39.

تعرف بالإسلامية كانت قبل الإسلام واستمرت ولم تزل لتحل محلها مدن بلامح أخرى ومدن العالم الاسلامي المعاصر توصف بالإسلامية وهي لا تكاد تختلف عن المدن العالمية إلا قليلا<sup>(1)</sup>. لقد كانت البداية الآلية لظهور المدينة الإسلامية تعود الى يثرب والتي تحولت إلى مدينة بمفهوم حضاري واضح انسحب على تسميتها فأصبحت تسمى المدينة، لتتلائم الدين الجديد مع الحياة الحضارية<sup>(2)</sup>.

لقد وضع الماوردي ثمانية واجبات وشروط لبناء المدينة الاسلامية هي:

1-أن يسوق إليها الماء إذا بعد.

2-تخطيط طرقها وشوارعها.

3-بناء جامع للصلوات في وسط المدينة لقرب جميع الناس.

4-أن يضع لها أسواق في أماكن مختلفة .

5-أن يسكن القبائل في أحياء خاصة بها.

6-إذا أراد الملك أن يسكن المدينة عليه السكن في أفسح أطرافها، ويحيط به حاشيته وأجناده

7-أن يحيط المدينة بسور.

8-أن يسكن بالمدينة أهل الحرف والعلوم<sup>(3)</sup>.

لهذا فالمدينة الإسلامية تعد انعكاسا لنظام عقائدي واجتماعي وثقافي فنسيجها الحضري وتكوينها الفضائي جاء نتيجة لتفاعل الإنسان مع بيئته الحضرية تحت مفهوم عام هو الإسلام فهي ليست مجرد ظاهرة جغرافية أو تاريخية فحسب بل هي أولا وقبل كل شيء ظاهرة دينية اتسمت بتعبير وتنظيم مكاني حسب ما جاء في التشريع الإسلامي إذ امتزجت فيها القوانين المادية بالقيم الروحية<sup>(4)</sup>.

(1) الطاهري عبد الحق، المرجع السابق، ص155.

(2) عثمان محمد عبد الستار، المدينة الاسلامية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1988، ص45.

(3) الماوردي، المرجع السابق، ص163-164.

(4) الجادرجي رفعت (التراث ضرورة) مجلة اتحاد المهندسين العرب، الامانة العامة لاتحاد المهندسين العرب، بغداد، العدد37، سنة 1985، ص23.



## رابعاً: نماذج من المدن الجزائرية في الفترة الوسيطة.

### (1) تلمسان:

تقع تلمسان في سفح جبل بني ورنيد المار جنوباً ويسمى قابلتها بالصخرتين وينحدر منه نهر سطفسييف المار بشرقيها ليلتقي بنهر يسر ثم بنهر تافنا<sup>(1)</sup> وتلمسان تحريف لصيغة جمع وهو تلمسان أو تلمسين بكسر فسكون ومفرده تلماس ومعناه جيب أو ينبوع، فيكون اسم تلمسان مدينة الينابيع، وأجادير اسم فينيقي، دخل هذا الاسم في لغة البربر ومعنى أجادير بجيم مصرية الجرف أو الهضبة ويفق هذا وموقعها<sup>(2)</sup>

لم تحمل المدينة اسم تلمسان إلا في مصادر القرن الثالث للهجرة<sup>(3)</sup>، ولا ندري من استعمله لأول مرة، في حين احتفظ بلفظ أقادير<sup>(4)</sup>، ليطلق على المدينة القديمة في الجهة الشرقية من تلمسان، ويصفها الإدريسي بأنها "مدينة أزلية ولها سور حصين متقن الوثيقة وهي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور".<sup>(5)</sup>

تأسست مدينة تاجررات أو تلمسان الجديدة من قبل يوسف بن تاشفين<sup>(6)</sup>، فأصبحت تلمسان مقراً لولاة الموحدية في المغرب الأوسط إذ شيّدوا القصر وجعلوه مقراً للتواصي، وبنوا المسجد

(1) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد، د ت، ص 76.

(2) بلفراد محمد ( تلمسان) مجلة الأصاله، السنة الرابعة، العدد 26 جويلية- أوت، 1975، ص 299.

(3) ذكرها ابن عبد الحكم (ت 257 هـ / 870م) حينما تكلم عن موسى بن أبي خالد مولى معاوية بن حديج سنة 123 هـ. فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964، ص 96، كما ذكرها يعقوبي المتوفى سنة 284 هـ / 897 م باسم تلمسان وقال بأنها "المدينة المشهورة بالغرب وعليها سور حجارة وخلفه سور آخر حجارة وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002، ص 192. كما جاءت الكلمة بصيغة تلمسين عند. وذكرها ابن حوقل (ت 367 هـ / 977م) باسم تلمسان وبأنها مدينة أزلية ولها سور من آجر حصين. صورة الأرض، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان، 1992، ص 88.

(4) معنى كلمة أقادير حسب اللهجة المحلية الحصن أو الصخرة المنبوعة وهي مشتقة من أقادير، أي جدار المدينة الحصين، ومن هنا تسمى المدينة بمدينة الجدار. بن داود نصر الدين، (بيوتات العلماء بتلمسان، من القرن 7 إلى 10 هـ) جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2009-2010، ص 3. ويذكر الوزان (ت 957 هـ / 1550 م) أن تلمسان مدينة كبيرة وهي عاصمة المملكة لم يذكر التاريخ مؤسسها وكل ما يقال أنها كانت مدينة صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب أرشكول. وصف إفريقية، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، لبنان، 1983، ج 2، ص 17.

(5) أنظر زهبة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج 1، د ت، ص 248.

(6) بناها يوسف بن تاشفين غرب المدينة القديمة أقادير، واتخذها معسكراً له لهذا سماها تاجررات وتعني المحلة أو المعسكر بلسان صنهاجة. حساني مختار، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط 1، 2011، ج 4، ص 37؛ وحاجيات عبد الحميد ( تلمسان مركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط) مجلة الحضارة الإسلامية، العدد الأول، 1993، ص 37؛

الأعظم أو الجامع الكبير، وجعلوا لها خمسة أبواب، وأصبحت تلمسان حاضرة من حواضر الغرب الإسلامي وقاعدة المغرب الأوسط<sup>(1)</sup>.

وإذا كان خط التطور الفعلي لمدينة تلمسان بدأ مع المرابطين، متجهة معهم إلى التحول التدريجي إلى مركز حضاري كبير، فإن هذا الخط واصل سيره ليبلغ مستوى عاليا من الازدهار في العهد الموحيدي والزياني، ضاهى في ذلك المراكز العلمية الإسلامية الكبرى كالقيروان وفاس وقرطبة<sup>(2)</sup>، كما أن تلمسان كانت ولاية مهمة من ولايات الدولة الموحدية، وقريبة إلى المركز "العاصمة مراكش"<sup>(3)</sup> وتلمسان<sup>(4)</sup> كما يصفها الإدريسي (ت 560هـ/1165م) بالخصب ورخص المعيشة وكثرة الخيرات، وقال عنها لم يكن في عصره بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالا ولا أرق منهم حالا<sup>(5)</sup> ويضيف الجغرافي المجهول (كان حيا سنة 587هـ/1191م) "ومدينة تلمسان مدينة علم وخير، ولم تنزل دار العلماء والمحدثين..."<sup>(6)</sup>.

ويحي بوعزيز، تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1985، ص 33. وهي التي تمثل اليوم وسط مدينة تلمسان ومركزها الجامع الأعظم المرابطي والساحة المحاذية له. بن داود نصر الدين، المرجع السابق، ص 5.

(1) البكري، المصدر السابق، ص 76.

(2) لعج عبد العزيز (تلمسان، عمارة وعمارتها الدينية) مجلة الوعي، دار الوعي، الجزائر، عدد 3-4، أبريل-ماي، 2011، ص 24.  
(3) حاجيات عبد الحميد (الحياة الفكرية في عهد بني زيان) مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد 26، جويلية-أوت، 1975، ص 137. وأنا لا أوافق في اعتبار استدعاء الفقهاء والعلماء مثبث للتطور الفكري على قوله "وكان من شأن هذا الوضع بطبيعة الحال أن يقيد تطور الحياة الفكرية بتلمسان في عصر الموحدين، ويحد من ازدهارها، ويجعلها تابعة إلى حد بعيد للحياة الثقافية السائدة بمراكش". نفس المرجع والصفحة والعكس على نقض ذلك حيث أن الاحتكاك بمختلف العلماء والفرق والمذاهب والأفكار ساهم في تطوير الحياة الفكرية وزرع المنافسة، بل والاطلاع على ما أنتجه الغير وعدم التقوقع داخل تلمسان.

(4) وهذه المدينة يسميها القدامى تيميسي، ويجعلها بطليموس في الدرجة الثالثة عشر وخمسين دقيقة طولاً، والثالث والثلاثين وعشر دقائق عرضاً، وتسمى تلمسان بلغة البلاد، وتقع على بعد سبعة فراسخ من البحر في جهة الجنوب، ويرجع تأسيسها إلى قبيلة مغراوة من قبيلة زناتة، ولم تكن إذ ذاك إلا مدينة صغيرة بمثابة قلعة ضد أفارقة الصحراء، ثم اتسعت بعد ذلك. مارمول كربخال، إفريقيا، طبع دار المعرفة، الرباط، 1989، ج 2، ص 298. لا يصدق القول بأن مؤسسي أقادير أو تلمسان هم الرومان لأنما أقدم منهم بكثير والمؤسسون الحقيقيون لها هم بنو يفرن الزناتيون. ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 24، ص 102.

(5) وأعاد الحميري (ت 727هـ/1327م) ذكر الأوصاف السابقة مع تأكيده على أهمية تلمسان بقوله: "تلمسان قاعدة المغرب الأوسط... وهي مدينة عظيمة قديمة فيها آثار للأول كثيرة تدل على أنها كانت دار مملكة للأمم سالفة..." أنظر الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مطبعة هيدلبرغ، ط 2، بيروت، لبنان، 1984، ص 135.

(6) مجهول مراكشي، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط 2، 1986م، ص 177.

تدعى تلمسان أيضا مدينة السور أو الجدار لكونها محاطة بأسوار كبيرة وطويلة قليلا ما نجد مثلها في العالم الإسلامي، حتى أن ياقوت الحموي (ت626هـ/1228م) نقل في معجمه مزاعم خاطئة عن جدارها حيث يقول: "...ويزعم بعضهم أنه-تلمسان-البلد الذي أقام به الخضر عليه السلام الجدار المذكور في القرآن<sup>(1)</sup>.

وتقع تلمسان المشهورة حيث الطول أربع عشرة درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنان وأربعون دقيقة، كما يصفها ابن سعيد المغربي (ت685هـ/1286م) بأنها "مشهورة...والأندلسيون يقولون كأنها من مدن الأندلس لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها.."<sup>(2)</sup>، وقد وصف يحيى بن خلدون (ت780هـ/1378م)، مؤرخ ملوك بني عبد الواد، تلمسان بقوله: "اقتعدت بسفح جبل ودون رأسه ببسيط أطول من شرق إلى غرب عروسا فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين تطل منه على فحص أفيح معد للفلاح"<sup>(3)</sup> ويضيف قائلا "ولها خمسة أبواب: قبلة باب الجياد، وشرقا باب العقبة، وشمالا باب الحلوي، وباب القرميدين، وغربا باب كشوطة"<sup>(4)</sup>.

إلا أن أبو الفداء (ت732هـ/1331م) يبالغ فيذكر لها ثلاثة عشر بابا<sup>(5)</sup>، وأطنب لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ/1378م) في وصفها قائلا: "تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه، وحواليه من الدوحات حشمه وأعالجه، عبّادها يدها وكفها كفها، وزينتها زيانها، وعينها أعيانها، هواها المقصور بها فريد، وهواؤها الممدود صحيح عتيد، وماؤها برود صريد، حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب، فلا نحول فيها ولا شحوب"<sup>(6)</sup>.

أما محمد العبدري (ت720هـ/1320م) فقد وصفها في رحلته قائلا: "تلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية، جميلة المنظر، مقسومة باثنتين بينهما سور، ولها جامع عجيب مليح متسع، وبها أسواق

(1) ويُكذب ابن خلدون كل هذه المزاعم لأن موسى عليه السلام لم يفارق المشرق إلى المغرب وبنو إسرائيل لم يمتد ملكهم إلى المغرب. العبر، ج7، ص102.

(2) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982م، ص140.

(3) ابن خلدون يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، 1980، ج1، ص86.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص90.

(5) أبو الفداء، تقويم البلدان، اعتنى به زينود البارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1840م، ص137.

(6) نقلا عن نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، ج7، ص135.

قائمة وأهلها ذوو ليانة، ولا بأس بأخلاقهم"<sup>(1)</sup> ويذكر الحميري القبائل التي تستوطنها بأنها قبائل زناتة...ولها قرى كثيرة وعمائر متصلة<sup>(2)</sup>.

(2) بجاية<sup>(3)</sup>.

رغم أن بجاية لم تكن في منتصف القرن الحادي عشر، حسب البكري، سوى ميناء صغيرا محتشما يسكنه الأندلسيون<sup>(4)</sup> لكن في نفس السنة التي أنهى فيها البكري تأليفه (1067-1068م) شهدت هذه البلدة المغمورة انبعاث حياة جديدة باختيار موقعها من طرف أمير قلعة بني حماد الناصر، وهو نتيجة من نتائج الحملة الهلالية<sup>(5)</sup>.

كما يصف الإدريسي المعاصر للفترة الموحدية بجاية بقوله: "بجاية مدينة على البحر، لكنها على جرف حجر ولها من جهة الشمال جبل يسمى مسيون وهو جبل سامي العلو، وهي في وقتنا هذا عاصمة المغرب الأوسط وأهلها مياسرة تجار وبها من الصناعات والصناعات ما ليس بكثير من البلاد"<sup>(6)</sup> ويسانده العبدري بقوله: "بأنها مدينة كبيرة حصينة منيعة شهيرة بريّة وبحرية، وثيقة

(1) أنظر الرحلة المغربية، تحقيق بن جدو، مطبعة البعث، ط1، قسنطينة، 1964، ص9.

(2) الروض المعطار، ص176.

(3) يقول عنها الحميري "وهي محدثة بناها ملوك صنهاجة أصحاب قلعة أبي الطويل المعروفة بقلعة حماد، وكان سبب بنائها أن العرب لما دخلوا إفريقية وأفسدوا القيروان وأكثر مدن إفريقية... فلما جاء المنصور بن علناس (481-498 هـ/1088-1104م) إلى تلك القلعة نزلت عليه جيوش العرب وضيقوا بلاده... فطلب موضعا بيني فيه مدينة لا يلحقه فيها العرب، فدل على موضع بجاية... فبناها المنصور وسماها المنصورية... وبينها وبين قلعة حماد أربعة أيام... ورأيت في خير آخر أن الناصر بن علناس صاحب القلعة هو الذي بنى بجاية وصيرها دار ملكه ولهذا تسمى الناصرية وأظن ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة. أنظر الروض المعطار، ص81. ومن خلال بعض الدراسات حول بجاية اتضح أن تاريخ تأسيسها بداية من 457هـ/1064م وانتهوا منها سنة 460هـ/1067م وللمزيد عن ذلك لاحظ بعيزيق صالح، بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2006.

وبجاية تلفظ بالفرنسية بوجي، وقد سمي الفرنسيون الشمعة بوجي نسبة إلى مدينة بجاية، التي كانت تشتهر بهذا النوع من الشموع، كما كانت تصدر شمع النحل إلى جنوه بجنوب إيطاليا، حيث توجد مصانع هامة للشمع. بجاية، وزارة الإعلام والثقافة، ص14.

(4) البكري، المصدر السابق، ص82. لكن مرمول كرنجال يعتبرها قديمة جدا تعود إلى العهد الروماني حيث كان بها عشرين ألف من الدور العامرة، وقد جعلها بطليموس عند اثنين وعشرين درجة طولاً وعند اثنين وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة عرضاً. مرمول كرنجال، المصدر السابق، ج2، ص376.

(5) برونشيك روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988م. ج1، ص410.

(6) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1989، ص116.

البنيان عجيبة الإتقان رفيعة المباني، موضوعة في أسفل جبل وعر مقطوعة بنهر وبحر، ولها جامع عجيب منفرد في حسنه غريب"<sup>(1)</sup>.

ويضيف الإدريسي حول المدينة: "وأما مدينة بجاية في ذاتها فإنها عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد بن بلقين وهي التي تنسب دولة بني حماد إليها والقلعة كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية دار الملك لبني حماد"<sup>(2)</sup>.

وبالتالي فبجاية عاصمة المغرب الأوسط ومدينة عظيمة على ضفة البحر، هي قطب لكثير من البلاد<sup>(3)</sup> كما يدعم قوله صاحب الاستبصار: "وهي مدينة عظيمة ما بين جبال شامخة، قد أحاطت بها والبحر منها في ثلاث جهات"<sup>(4)</sup> وهي قاعدة المغرب الأوسط حيث الطول اثنتان وعشرون درجة والعرض أربع وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة، ولها نهر في نهاية من الحسن على شاطئيه البساتين<sup>(5)</sup>.

لقد برزت بجاية بفضل موقعها الاستراتيجي الذي شكلته هذه المدينة بالمغرب الأوسط حيث كانت تتوسط عدة مدن مهمة كبونة وقسنطينة وجزائر بني مزغنة وقلعة بني حماد، كما كانت محطة تجارية<sup>(6)</sup>، ومعبر للحالة والحجاج والعلماء للتوجه نحو الشرق أو الأندلس والعودة منها.

يحدد عبد الواحد المراكشي (ت647هـ/1249م) بأن المسافة من قسنطينة إلى بجاية خمس مراحل على الرفق، وبجاية هذه دار ملك بني حماد الصنهاجيين سابقا<sup>(7)</sup>.

كما وصفها لنا حسن الوزان (حي سنة957هـ/1550م) "بأنها مدينة عتيقة بناها الرومان، وتناهد كوانينها ثمانية آلاف في القسم المسكون منها، إذ لو امتلأت دورا لفاق عدد كوانينها أربعة وعشرين ألفا"<sup>(8)</sup>. وان دل عدد الكوانين فيدل على التركيز السكاني الكبير بها لأنها منطقة جذب للإقامة،

(1) أنظر الرحلة المغربية، ص23.

(2) المصدر السابق، ص117.

(3) الحميري، المصدر السابق، ص80.

(4) مجهول، المصدر السابق، ص129.

(5) ابن سعيد: المصدر السابق، ص142.

(6) السعيد عقبه (الحياة العلمية والفكرية ببجاية خلال القرن السابع هجري/ 13 م من خلال كتاب عنوان الدراية) جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2008-2009، ص3.

(7) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005م، ص253.

(8) حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص50.

ويضيف الوزان دائما بقوله "ودورها كلها جميلة وفيها جوامع كافية ومدارس يكثُر فيها الطلبة وأساتذة الفقه والعلوم، بالإضافة إلى زوايا المتصوفة..."<sup>(1)</sup>.

لهذا كانت بجاية مثلا فريدا في التألق ومن أغنى مراكز الحضارة في ذلك العصر<sup>(2)</sup>، وقد كان ببجاية أسواق كثيرة منها السوق التي كانت تقع بالغرب من باب تأطنت<sup>(3)</sup>.

فأصبحت بجاية واحدة من أهم الحواضر الثقافية والفكرية بمنطقة المغرب الأوسط، إذ كانت عامرة بالفقهاء والأدباء، كما تعد من أكبر مراكز العلوم الإسلامية واللغوية على غرار ما يوجد منها بالمشرق والأندلس، فقد كان يهاجر إليها باستمرار رجال من أولى العلم والأدب للاستزادة من علوم الدين والحديث واللغة<sup>(4)</sup>.

فبجاية كانت من حواضر المغرب الأوسط التي كان لها نصيب من النمو والتوسع العمراني، فيذكرها العديد من المؤرخين والشعراء أنها كانت تكسوها مبانٍ في غاية الإبداع والجمال<sup>(5)</sup>، حتى أضحت في تلك الحقبة تنافس مدن العراق والشام في العمارة، فهاهو الشاعر القسنطيني الحسن بن الفكون (كان حيا سنة 602 هـ/1205 م) الذي زار بجاية في أوائل القرن 6 هـ/12 م يؤكد ذلك بقوله:

دع العراق وبغداد وشامها فالناصرية ما من مثلها بلد<sup>(6)</sup>.

وقد حدثنا العبدري في الرحلة المغربية، حيث بدأت رحلته سنة 698 هـ/1298 م، فقال في معرض الحديث عن بجاية: "وهي مدينة كبيرة حصينة منيعة...وثيقة البنيان عجيبة الإتقان...ولها جامع عجيب منفرد في حسنه غريب من الجوامع المشهورة الموصوفة المذكورة، وهو مشرف على برها وبحرها، وموضوع بين سحرها ونحرها"<sup>(7)</sup>، كما قال "وهذا البلد بقية قواعد الإسلام، ومحل جلة من العلماء الأعلام"<sup>(8)</sup>.

(1) نفس المصدر والصفحة.

(2) بجاية، وزارة الإعلام والثقافة، ص 64.

(3) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 253.

(4) إبراهيم عبد النور (إسهامات القيروان وبجاية في البناء المعرفي الإسلامي) ضمن أعمال الملتقى المغاربي الأول "الإسهامات المغاربية في البناء المعرفي الإسلامي" 21-22 نوفمبر 2011، دار قاعة للنشر، باتنة، الجزائر، 2011 م، ج 1، ص 43.

(5) بوتشيش أمينة (بجاية دراسة تاريخية وحضارية، بين القرنين 7 هجريين) رسالة ماجستير، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2007-2008 م، ص 62.

(6) مصطفىاوي رشيد (بجاية في عهد الحماديين) مجلة الأصالة، السنة الأولى، العدد 1، محرم 1391 هـ/مارس 1971، ص 81.

(7) أنظر الرحلة المغربية، ص 23.

(8) بجاية، وزارة الإعلام والثقافة، ص 100.

كانت تشتمل على واحد وعشرين حيا، واثنين وسبعين مسجدا، وقد أصبحت مركزا ثقافيا هاما، فقصده عدد مهم من الشعراء والكتاب والعلماء المطلعين في جميع مجالات المعرفة، أين أقام بها العالم الصوفي الأندلسي "سيدي بومدين الغوث" المدفون بتلمسان، حيث درّس ببجاية وقتا من الزمن، وكما مكث بها مؤسس دولة الموحدين "ابن تومرت"<sup>(1)</sup>.

### 3) قسنطينة<sup>(2)</sup>.

لم تلعب قسنطينة<sup>(3)</sup>، إلا دورا ثانويا منذ بداية الفتح حتى العهد الفاطمي<sup>(4)</sup>، ثم نمت وازدادت أهميتها خلال العهد الحمادي والموحدي<sup>(5)</sup> وتؤيد كتب الجغرافيين والكتابات المعلومة التي يزودنا بها المؤرخون، وتبين لنا نمو المدينة، هذا وإن لم تذكر، مدينة قسنطينة في كتب الجغرافيين العرب الذين عاشوا في القرن التاسع الميلادي وهم ابن خرداذبة (ت 272 هـ/885م) في كتابه المسالك والممالك، وكذلك لم يذكرها ابن الفقيه الهمذاني (ت 290 هـ/903م)، صاحب مختصر كتاب البلدان، وابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر، ت بعد 291 هـ/903 م) في كتابه الأعلاق النفيسة<sup>(6)</sup>.

1) ابن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمد علي مكّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2، 1990م، ص 176؛ وعبد النور إبراهيم، المرجع السابق، ج 1، ص 53-54.

2) قسنطينة: بضم أوله، وفتح ثانيه ثم نون، وكسر الطاء، وباء مثناة من تحت، ونون أخرى بعدها ياء خفيفة، وهاء: مدينة وقلعة يقال لها قسنطينة الهواء، وهي قلعة كبيرة جدا حصينة عالية لا يصلها الطير إلا بجهد... وتزاور عنها قلعة بني حماد ذات الجنوب. الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م، ج 4، ص 349. أو قسنطينة: بضم القاف وسكون السين وكسر الطاء المهملتين، وسكون المثناة من تحت ونون وهاء، وعند بعض المتأخرين أن بعد السين وقبل الطاء نون وحينئذ بضم السين وسكون النون. أبو الفداء، المصدر السابق، ص 138.

3) كانت تسمى سيرتا أو قرطة وقد تأسست خلال العهد النوميدي منذ القرن 3 ق م، وأعطاه الإمبراطور قسطنطين اسمه في سنة 313 م. روبرا برونشيك، المرجع السابق، ج 1، ص 418. لم تبرز هذه المدينة في الفترة التي تلت الفتح الإسلامي، ولم يكن لها دور يذكر في القرون التالية. الطويل الطاهر، المرجع السابق، ص 258. وكما ذكره ابن حوقل ضمن المدن المتوسطة الحجم رفقة سطيف والمسيلة وميلة. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 93.

4) يذكر مازمول أن اسمها قديم وهو عند بطليموس نوميديا الجديدة، ويحدها من جهة الغرب إقليم بجاية عند موقع جيجري، وتحده من الشرق البلاد التي تسمى بإفريقية وفي الجنوب تشمل الجزء الذي يمر بما من جبل الأطلس وتمتد ما وراءه إلى نوميديا وجيتوليا، ويحدها شمالا البحر المتوسط وخليج نوميديا ما بين جيجري ومصب مجردة عند بنزرت. أنظر، إفريقيا، ج 3، ص 5.

5) يذكر الدكتور فيلاي عبد العزيز والدكتور بحاز: لقد انحطت مدينة ميلة وانحط شأن سكانها على عهد الموحدين والحفصين، الذين اتخذوا من مدينة قسنطينة بديلا عن ميلة، فكما طغت ميلة على قسنطينة منذ الفتح حتى العهد الحمادي أي ما يقارب من ستة قرون كاملة، فلقد رأينا كيف أن قسنطينة طغت وهيمنت على ميلة بعد ذلك. أنظر، مدينة ميلة في العصور الوسطى، دار البلاد للاتصال والخدمات، قسنطينة، 1998، ص 68.

6) بورويبة رشيد، قسنطينة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 55.

كما ذكرها المقدسي (ت379هـ/989م) صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم وهو جغرافي عاش في القرن العاشر وسماها القسطنطينية، ولاحظ أنها "مدينة جاهلية على يمين من المصر"<sup>(1)</sup>، أي القيروان.

ويبين البكري الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي، الأهمية التي أخذتها قسنطينة التي يلقبها باسم قسنطينة، وموقعها المنيع، فقال: "قسنطينة مدينة أولية كبيرة أهلة ذات حصانة ومنعة ليس يعرف أحصن منها وهي على ثلاثة أنهار عظام تجري فيها السفن، قد أحاطت بها، تخرج من عيون تعرف بعيون أشقار تفسيره سود وتقع هذه الأنهار في خندق بعيد القعر متناهي البعد، قد عقد في أسفله قنطرة على أربع حنايا ثم بنى عليها قنطرة ثانية، ثم على الثانية قنطرة ثالثة من ثلاثة حنايا، ثم بنى فوقهن بيت ساوى حافتي الخندق يعبر إليه إلى المدينة ويظهر الماء في قعر هذا الوادي من هذا البيت كالكوكب الصغير لعمقه"<sup>(2)</sup>.

لقد كانت مساحة قسنطينة كبيرة ضاربة إلى الساحل، حتى مدينة القل، حيث يقول عنها صاحب كتاب الجغرافية..: «وفي شرق بجاية القل، وهي فرضة مشهورة في ساحل قسنطينة الهوى، وبينهما أربعون ميلا، وموضع قسنطينة في جنوبها، حيث الطول ست وعشرون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنتان وعشرون دقيقة، ولها نهر ينصب في خندقها العظيم... وهذه المدينة على آخر سلطنة بجاية"<sup>(3)</sup>.

بهذا فلها موقع مهم جدا حيث أنها مدينة داخلية بعيدة عن أي هجوم بحري، كما أنها تتوسط الطرق التجارية الرابطة بين القيروان وبسكرة، كما أنها محاطة بحماية طبيعية "الواد المحيط بها" وصعوبة تضاريسها، كما أنها تبعد عن القل على مسافة يومين، وعن بجاية مسافة ستة أيام، منها إلى مجانة يومان وأكبر من ذلك بقليل تبعد عنها قالمة"<sup>(4)</sup>.

كما يخبرنا البكري أيضا عن سكان قسنطينة وعن أهميتها التجارية قائلا: "ويسكن قسنطينة قبائل شتى من أهل ميله ونفزاوة وقسطيلة، وهي لقبائل من كتامة، وبها أسواق جامعة ومتاجر

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع ليدن، مطبعة بريل، ط2، 1909، ص30.

(2) أنظر البكري، المغرب، ص63؛ وبورويبة رشيد، قسنطينة، ص55. ويظهر أن هذا الواد قد جف الآن ولا أثر لمياهه.

(3) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1970، ص142.

(4) الإدريسي، المصدر السابق، ص121-123.



رابحة"<sup>(1)</sup>، حيث أصبحت في هذا العصر-أي الحمادي- من أهم حواضر المغرب الأوسط، وستعرف ازدهارا أكثر في معمارها الديني، خاصة المساجد في القرن السادس هجري<sup>(2)</sup>. ويصفها الإدريسي (القرن الثاني عشر/السادس هجري) الذي عاش الفترة الموحدية "بأنها عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب"<sup>(3)</sup>. ويضيف الإدريسي (ت 560 هـ/1165 م) أنها قسنطينة الهواء، وقال وهو يحدثنا عنها: "وليس للمدينة من داخلها سور يعلو أكثر من نصف قامة إلا من جهة باب ميلة وللمدينة بابان، باب ميلة في الغرب وباب القنطرة في الشرق" ويذكر الإدريسي أن هذا الباب الأخير يؤدي إلى جسر قديم يستعمل كقنطرة ماء، وأن المقبرة كانت موجودة بالقرب من باب ميلة<sup>(4)</sup>. كما يبين ذلك جغرافي ورحالة آخر هو ياقوت الحموي (ت 626 هـ/1228 م) أن حولها مزارع كثيرة وإليها ينتهي رحيل عرب إفريقية مغربين في طلب الكلال...وهي على ثلاثة أنهار عظام تجري فيها السفن، قد أحاطت بها تخرج من عيون تعرف بعيون أشقار..."<sup>(5)</sup>. إضافة إلى ما ذكر عنها عبد الواحد المراكشي (ت 647 هـ/1249 م) بأنها حد المغرب الأدنى أو ما يعرف بإفريقية هو قسنطينة الهواء، وسميت بذلك لإفراط علوها وشدة منعها، والمسافة بينها ومدينة أنطابلس-برقة-خمس وخمسين مرحلة"<sup>(6)</sup>، ويضيف العبدري في رحلته وبين قسنطينة والبحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلا<sup>(7)</sup>. ويفيدنا بوصف الجسر الذي ذكرناه، وبين الثروة ناحية قسنطينة قائلا: "إن في كل دار مطمورتان، وثلاث وأربع منقورة في الحجر ولذلك تبقى الحنطة...في مطامرها مائة سنة لا تفسد"<sup>(8)</sup>. لكن العبدري دخلها خلال رحلته المعروفة، وتأسف لحالها بقوله: "جبر الله صدعها...وهي مدينة عجيبة حصينة غير أنها لخطوب الزمان مستكينة...وبها للأوائل آثار عجيبة ومبان متقنة الوضع

(1) البكري، المغرب، ص 63؛ وبوروية رشيد، قسنطينة، ص 55.

(2) الطويل الطاهر، المرجع السابق، ص 260.

(3) أنظر، نزهة المشتاق، ص 121.

(4) نفسه، ص 122؛ وبوروية رشيد، قسنطينة، ص 55.

(5) أنظر، معجم البلدان، ج 4، ص 349.

(6) أنظر، المعجب، ص 250.

(7) أنظر، الرحلة المغربية، ص 29. ورغم أنه يعود ويتحامل مرة أخرى عليها وعلى علمائها ربما لغرور في نفسه بقوله "ولم أر بما من ينتمي إلى طلب، ولا من له في فن من فنون العلم أرب سوى الشيخ أبي علي حسن بن القاسم بن باديس. نفس المصدر والصفحة.

(8) نزهة المشتاق، ص 122.

غربية وأكثرها من حجر منحوت، وقد دار بها واد شديد الوعر بعيد القعر أحاط بها كما يحيط السوار بالمعصم"<sup>(1)</sup>.

كما يذكر الجغرافي المعاصر له بأن قسنطينة مشهورة في هذه الفترة، وهي مدينة عامرة قديمة أزلية، فيها آثار كثيرة للأول... وهي حصينة في نهاية من المنعة، لا يعرف بإفريقية أمنع منها، وليس لها في المنعة نظير غير مدينة رندة بالأندلس... وهي من عجائب العالم، قد دخلتها مرارا وتأمّلت آثارها، وهي على نظر واسع وقرى كثيرة عامرة أهلة، وهي كثيرة الخصب والزرع<sup>(2)</sup>، ويسمى جغرافي آخر عاش في القرن الثامن هجري - أي بعد تفكك الامبراطورية الموحدية - بقسنطينة حيث يقول: "بها نهر يصب في خندقها العظيم ويسمع لذلك دوي هائل، ويرى النهر في قعر الخندق مثل ذوابة النجوم لشدة ارتفاع قسنطينة"<sup>(3)</sup>.

كما انتصب قائما بقسنطينة، جامعها الكبير، ولعب دورا ثقافيا مهما، ويعود عهده إلى يحيى بن العزيز آخر ملوك بني حماد (515-547هـ/1121-1152م)، بناه سنة 530هـ/1135م<sup>(4)</sup>، وبالتالي ازدهر في العهد الموحيدي.

### خاتمة لأهم النتائج.

مما لا شك فيه أن التراث المعماري والعمراني للمدن الجزائرية مهدد بالتبديد والضياع، ومن ثم كان على كل من تصدى للعمل في هذا الميدان أن يعطي ما عنده في تحديد كيفية حماية هذا التراث حتى يتسنى لنا أن نحافظ على شخصية مدننا وذاتية حضارتنا.

من أهم المعايير التي استحدثها الإسلام في عمارة المدن انشاء المسجد كمركز للحكم والامارة ومركزا للمدينة كذلك وجميع الطرق الرئيسية في المدينة تصل بين المناطق والمسجد وقصر الإمارة والسوق.

تمثل المدن الجزائرية صورة مزيجة بين التراث القديم "المازيغي والبونيفي والروماني، والاسلامي" فأغلب المدن لها جذور تاريخية، ثم امتزجت في ظل الحضارة الاسلامية مما أدى الى تكيفها وتحولها الى مدن نموذجية في الطابع الاسلامي ومنها مدينة تلمسان وبجاية وقسنطينة.

(1) الرحلة المغربية، ص 29.

(2) الحميري، المصدر السابق، ص 480.

(3) أبو الفداء، المصدر السابق، ص 139.

(4) عويس عبد الحليم، دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الشروق، ط1، الجزائر، 1980، ص 280.